طرائف من أدب العرب

(٨)

العقد الفريد لابن عبد ربّه

اعرف ادبيًّا فيه عيبان ظريف قلّما قادهُ غير مرة الى السجن هذا اول وحرفة الادب[1] وهي العيب الثاني. قال لي هذا الاديب وانا شديد التعجب بأدبه الرائع « قرأت العقد الفريد في سجني ثلاثين مرة » وهذا يشبه قول الفارابي في كتاب النفس لارسطو « قرأت هذا الكتاب مئة مرة » او قولهُ في كتاب آخر لارسطو « قرأت هذا الكتاب اربعين مرة واراني احتاج الى معاودة قراءته » - على انك قد تقرأ كتابًا ما ما شئت من المرات فلا ينتفع احدكما من صاحبه اذا لم تجمع الى القراءة صدرًا واعيًا وفؤادًا ذكيًّا

وهذا الاديب عينهُ عاد في الزمن الاخير وبعد فوات الفرصة يتحسّر على ما كان من إضاعة العمر — والعمر قصير — في قراءة العقد الفريد أو غيره من كتب الادب ويودّ لو يعيدهُ الله سيرتهُ الاولى اذًا لاكتفى بقراءة الاغاني للاصبهاني حسبان ان كل الصيد فيه

لكن هذا لا يقدح في كتاب اتفق الكتّاب على وضعهِ هو وكاتبهِ في المقام الاول. فقال ابن خلكان في ترجمة ابن عبد ربه « وصنف كتابهُ العقد وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء » . ويقال إن أديبًا اندلسيًّا حجّ وعرّج على مصر بعد عودته من الحج فرأى فيها المتنبي فقال لهُ المتنبي « أنشدني مليح الاندلس » أي ابن عبد ربه فانشده فاهتزّ لهُ المتنبي واستعادهُ وقال « يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبرًا » . وإن لم تكفِ هاتان الشهادتان في بيان مقام ابن عبد ربه في الادب فلعلهُ يكفي ان جمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب عني باختصار العقد الفريد كما ورد في الجزء الاول من اللسان قبل المقدمة

---

(١) هذا مأخوذ من قول بعضهم في الخليفة الطليب القاهر المعتز بالله عبد الله بن المعتضد

لله درك من ملك بهيئة ناهيك في العلم والعلياء والحسب
ما نيل لولا ولا ليث تنقصهُ وإنما ادركهُ معرفة الادب

اي الفقر. وقال ابن الساعاتي :

هجرت قضيّ له لا من مهانتهِ لكنها خيفة من معرفة الادب

وقال مستشرق انكليزي مشهور في ابن عبد ربه : كان ذا شهرة عظيمة في العلم والبلاغة . وليس في المكتاب ديوان لهُ ولكن في « يتيمة الدهر » مقطعات كثيرة من شعره . على ان اشهر ما اشتهر بهِ كتابهُ العقد الفريد وهو كتاب ادب كثير الشبه بكتاب عيون الاخبار لابن قتيبة الذي اقتبس منهُ كثيراً »

***

ابن عبد ربه كاتب اندلسي من كتّاب اواخر القرن الثالث واوائل الرابع للهجرة . عاصر المتنبي ومات قبلهُ بنحو ثلاثين سنة . وكان من معاصريهِ ابن دريد اللغوي وابو الحسن الاشعري واضع علم الكلام والمسعودي المؤرخ المشهور والاصبهاني صاحب الاغاني وغيرهم من العلماء الاعلام . وكتابهُ العقد الفريد مبوب في خمسة وعشرين باباً جزئت على ثلاثة اجزاء . وقد سمّى كل باب منها باسم جوهرة فانتظم من هذه الجواهر عقد هذا العقد الفريد اما الجواهر فهي اللؤلؤة والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة والزمردة والدرة واليتيمة والعسجدة والمجنّبة والواسطة . وهذه الاخيرة هي الثالثة عشرة وسمّاها الواسطة لانها واسطة العقد اي في وسطهِ فما قبلها اثنتا عشرة جوهرة وما بعدها مثلها عدداً . والظاهر انهُ اعياهُ تسمية النصف الثاني من العقد باسماء جواهر جديدة فسمّى الرابعة عشرة المجنبة الثانية والخامسة عشرة العسجدة الثانية وعلّم جرّاً متقهقراً الى اللؤلؤة الثانية اي الجوهرة الخامسة والعشرين

وان من يحاول تلخيص هذه الابواب كلها كمن يحاول تفريغ البحر بصدفة — يفرغ عمرهُ ولا يفرغ عملهُ فلذلك رأيت ان اقتصر من العقد الفريد على الزمردة الثانية في فضائل الشعر وهي الجوهرة الثامنة عشرة كما لا يخفى . وانما وقع اختياري عليها لانها حوت في الكلام عن الشعر كلّ ما لذّ وطاب مما لا تكاد تجد لهُ مثلاً في كتاب واحد

اشعر الشعراء

اختلف الناس في اشعر الشعراء . قال النبي صلى الله عليهِ وسلم — وذكر عندهُ امرؤ القيس بن حجر — هو قائد الشعراء وصاحب لوائهم . وقال عمر بن الخطاب للوفد الذين قدموا عليهِ من غطفان اسمن الذي يقول :

حلفت فلم اترك لنفسي ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبُ

قالوا نابغة ذبيان : قال لهم فمن الذي يقول هذا الشعر :

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على وجل تظنّ بي الظنونُ
فألفيت الامانة لم تخنها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

قالوا هو النابغة . قال هو الشعر شعرائكم . وما احسب عمر ذهب الاّ الى انهُ اشعر شعراء غطفان . ويدلُّ على ذلك قولهُ هو اشعر شعرائكم . وقد قال عمر لابن عباس انشدني لاشعر الناس الذي لا يعاظل[1] من القوافي ولا يتبع حوشي الكلام . قال مَن ذاك يا امير المؤمنين . قال زهير بن ابي سلمى . فلم يزل ينشدهُ من شعره حتى اصبح . وقيل للبيد من اشعر الشعراء قال صاحب الغروج يريد امرأ القيس . قيل لهُ فبعدهُ مَن[2] . قال ابن

(١) المعاظلة في القوافي هي التضمين في نوع وهو تعلق قافية البيت بما بعدهُ على وجه لا يستتمُّ الافادة كقول النابغة :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم اصحاب يوم عكاظ اني
شهدت لهم مواطن صادقات شهدن لهم بصدق الودّ مني

ولكن يؤخذ ما قالهُ ابو الخطاب القرشي في جمهرة اشعار العرب ان المراد بالمعاظلة هنا ترديد الكلام في القافية بمعنى واحد . وقال ابن الاثير المعاظلة ان لا تعقد الكلام وتوالي بعضهُ فوق بعض

(٢) يقول النحاة ان ادوات الاستفهام والشرط ونحوها من ذوات الصدر وهي ما تعين لهُ صدر الكلام الداخل عليهِ . ولكن ورد في كلام فصحاء العرب ما يخالف ذلك . ففي التاريخ ان عائشة خرجت من مكة تريد المدينة وكان تصور فلقيها عبيد بن ابي سلمة فقالت لهُ بهيم (اي ما وراءك) قال تمل غثان و بقوا غثاثاً . قالت ثم صنعوا ماذا فاخرت اداة الاستفهام

وقرأت في الاغاني انهُ كان بالكوفة رجل من النخع يجتمع اليهِ الناس فيتذاكرون الشعر . فذكر يوماً شعر عمر بن ابي ربيعة فعابهُ . فقالوا لهُ بئس ترعى . وسرَّ بهم حماد الراوية فقال قد رعيت بيداً . فقالوا لهُ ما تقول فيمن يزعم ان عمر بن ابي ربيعة لم يحسن شيئاً . فقال ابن هذا اذهبوا بهِ اليهِ . قالوا فصنع بهِ ماذا . قال . . . . (وهنا شتم قبيح) وحماد الراوية من اهل القرن الثاني للهجرة

وقال سعيد بن المسيب لنوفل بن مساحق من اشعر عبدالله بن قيس او عمر بن ابي ربيعة . فقال نوفل حين يقولان ماذا يا ابا محمد . وهما من فحول الشعراء العرب في صدر الاسلام

ودخل نصيب الشاعر على عمر بن عبد العزيز بعد ما ولي الخلافة فقال لهُ سل حاجتك . فقال يمانيات نفضت عليهنَّ سوادي (وكان نصيب اسود البشرة) فكيف ارغب بهنَّ عن السودان وبرغب عنهنَّ اليمان . قال فتريد ماذا . وهذا من اهل القرن الاول للهجرة

ودخل نصيب على عبد العزيز بن مروان فقال لهُ عبد العزيز هل عشقت قط . قال نعم امةً لبني مدلج . قال فكيف تصنع ماذا

ومعلوم ان اللغة العامية المصرية تؤخر ادوات الاستفهام عن المستفهم عنهُ مما لا مثيل لهُ في اللغات العربية الاخرى ولا في اللغات الغربية المشهورة على ما اعلم . وقد كنت اتعجب كيف تعرقت هذه البدعة الى اللغة العامية هنا فاذا هي ليست غريبة عن العربية الفصحى كما رأيت

المشرين يعني طرفة . قيل لهُ فبعدهُ من قال اذا . وقيل للحُطَيئة من اشعر الناس . قال الذي يقول :

من يسأل الناس يحرموهُ وسائل الله لا يخيبُ

يريد عبيد بن الابرص . وقيل لهُ فبعدهُ من فاخرج لسانهُ وقال هذا اذا رغب . وسئل حماد الراوية عن شعر ابن ابي ربيعة فقال ذلك الفسق المقشر الذي لا يشبع منهُ[1]

واختلف الناس في اشعر نصف بيت قالتهُ العرب . فقال بعضهم قول ابي ذؤيب الهذلي « والدهر ليس بمعتب[2] من يجزع »

وقال بعضهم قول زهير « ومن يك رهناً للحوادث يقلق »

وقالوا ان اخر بيت قالتهُ العرب قول حسان بن ثابت

ويوم بدر اذ يردّ وجوههم جبريل تحت لوائهم ومحمدا

واحكم بيت قولهُ ايضاً :

فان امرأً امسى واصبح سالماً من الناس الاَّ ماحي لسعيدُ

وابدع بيت قول ابي ذؤيب الهذلي :

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا تردّ الى قليل تقنعُ[3]

---

(١) وقرأت في الاغاني ان حماد الراوية سئل عن شعر عمر بن ابي ربيعة فقال ذاك الفسق المقشر . وفي الحاشية هذه العبارة (قوله الفسق المقشر في لحية الفاسق المفسد) . وهذا من اغرب التحريف ولا يستقيم اذا صحت الرواية المذكورة في الحاشية السابقة فانها تدلُّ على شدة اعجاب حماد بشعر ابن ابي ربيعة حتى شغم ماجدة . ونسمت لفظة (الفسق المقشر) الى الاصمعي ايضاً فانهُ قالها في احسان شيء غاب عني الآن وذكر ذلك في البيان والتبيين

(٢) وفي رواية (والدهر ليس بمعتب من يجزع) اي بمرضٍ بعد الاحتياط ولعلها الرواية الصحيحة . وابو ذؤيب هذا تخضرم اي ادرك الجاهلية والاسلام . والشطر المذكور هو عجز مطلع مرثية رثى بها خمسة بنين له اهلكهم الطاعون في سنة واحدة . والصدر (امن المنون وريبه تتوجع) ومن ابياتها المشهورة

ولدا العمية انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفعُ

على انهُ لم كان في الشطر كفه (مسعف) مكان (معتب) لم يكن بهما من باس . فقد ورد في صبح الاعشى (والمولدون يستعملون اسعفه بمعنى ساعدهُ) ثم استشهد ببيت لابن المعتز ولكن ابن المعتز مولد . وفي التاج (اسعف الرجل بحاجته قضاها لهُ) اي ساعدهُ كساعفهُ . وجاء في الاغاني في خبر عن احمد بن ابراهيم الموصلي في عهد الرشيد (فركبت معه اسألك ان تسعفني فيما سألت) . وعهد الرشيد من عهد المولدين

(٣) وهو من مراثيه المشهورة التي تقدمت الاشارة اليها

واصدق بيت قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيم لا محالة زائلُ

هذه زبدة ما ورد في العقد الفريد عن شعر الشعراء واجمل الابيات . وقد جاء في مواضع اخرى انهم قالوا ان زهير بن ابي سلمى هو اشعر العرب وان النبي انما قال ان امرء القيس يقدم بلواء الشعراء الى النار لتقدمه في الشعر . وانكر غيرهم هذا القول وقالوا لو كانت التقدمة بالتقدم لقدم النبي ابن خذام[1] على امرىء القيس

وجاء في رواية اخرى عن حديث عمر وابن عباس[2] السالف الذكر ان عمر كان جالساً في اصحابه يتذاكرون الشعر والشعراء فيقول بعضهم فلان اشعر ويقول آخر بل فلان اشعر . فقيل لابن عباس بالباب فقال عمر قد اتى من يحدث من اشعر الناس . فلما سلم وجلس قال لهُ عمر يا ابن عباس من اشعر الناس قال زهير يا امير المؤمنين . قال عمر ولِمَ ذلك . قال لقوله يمدح هرماً وقومهُ بني مرة :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جنٌ اذا فزعوا إنس اذا امنوا مرزؤن بهاليلٌ اذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم لا يرزع الله عنهم ما بهِ حسدوا

قال عمر صدقت يا ابن عباس

وذكرت حكاية عمر ووفد غطفان في مكان آخر وخلاصتها : خرج عمر وبابهِ وفد غطفان فقال اي شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم اترك لنفسي ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبُ
ولست بمستبقٍ اخاً لا تلمهُ على شعثٍ اي الرجال المهذبُ

(وهذا البيت الثاني اشهر من نار على علم) . قالوا النابغة يا امير المؤمنين . قال فمن القائل (وهذه الابيات المذكورة في الرواية الماضية) قالوا النابغة . قال فمن القائل :

الا سليمان اذ قال الاله لهُ قم في البرية فاحددها عن الفندِ

قالوا النابغة . قال هو اشعر شعرائكم

وفي مكان ان اول من قال الشعر ابونا آدم حيث رثى ابنهُ هابيل قال :

---

(١) ابن خذام شاعر يقال انهُ قال الشعر قبل امرىء القيس بدليل قول امرىء القيس :

خرجا خليليَّ نقدا لمطلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

(٢) ابن عمّ النبي دعا لهُ النبي بالحكمة وسنكلم عن ذلك حين ولد

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض مغبر قبيحُ
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه الصبيحُ (١)
وجاورنا عدوّ ليس يفنى لعين لا يموت فنستريحُ
أهابك ان قتلتَ فان قلبي عليك اليوم مكتئب قريحُ

فاجابهُ ابليس :

تنحّ عن الجنان وساكنيها فني الفردوس ضاق بك الفسيحُ
وكنت جارز وجك في رخاء وقلبك من اذى الدنيا مريحُ
فما برحت مكايدتي ومكري الى ان فاتك الثمن الربيحُ
ولولا رحمة الرحمن امسى بكفك من جنان الخلد ريحُ

وزعموا ان بعض الملائكة نظم هذا البيت :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى الذهاب

ولا يخفى ان كل ذلك موضوع على لسان ادم وابليس والملائكة كما وضع شعر ملتن المعروف بالفردوس المفقود

وذكروا ان الخلفاء الراشدين نظموا الشعر فقال ابو بكر الصديق يرثي النبي :

اجدّك ما لعينك لا تنام كأنّ جفونها فيها كلامُ

وقال عمر بن الخطاب :

ما زلت مذ وضعوا فراش محمد كيما يمرّض خائفاً تترجعُ

وقال عليّ :

ألا طرق الناعي بليل فراعني وارّقني لما استقرّ منادياً

وقال عثمان :

فيا عين ابكي ولا تسأمي وحق البكاء على السيّدِ

***

اما الحكم في اشعر الشعراء او في احكم الشعر او ابدعه او اصدقه فمن اصعب الصعب اذ المسئلة مسئلة ذوق والذوق يختلف باختلاف العقول والوجوه فقد ترى حسناً ما ليس بالحسن وترى حكيماً ما لا يرى فيه وجه الحكمة غيرك او تجد غيره احكم منهُ

(١) يشابه قبيح وحذف التنوين لالتقاء الساكنين هكذا يزعمون وهو يخالف المعروف

وعندي ان هذا البيت :

ومن هابني في كل شيء وهبتهُ فلا هو يعطيني ولا هو سائلهُ

او ما ورد على مثاله ونسج على منواله هو احسن الشعر

ويختلف نظر الناس الى الامور ايضاً باختلاف امزجتهم واعمارهم . فصاحب السوداء يقدم الرثاء على الغزل والمدح . والعصبي المزاج ربما قدم الحماسة على الحكمة . والشاب يستحسن من الشعر مالا يستحسن الشيخ والشيخ مالا يستحسن الشاب . فقد كنت واذا حدّثت اطرب بقول المتنبي :

من الحلم ان تستعمل الجهل دونهُ اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

وان ترد الماء الذي شطرهُ دمٌ فتسقي اذا لم يسقَ من لم يزاحم

وذهب بي اعجابي بهما وطربي لهما ان قلت لصديق لي اذ جاءك يوماً نعيٌ فقل كان رحمهُ الله يتمثل ببهذين البيتين فيرقص طرباً لجمعها بين الحكمة الرائعة والحماسة التي ليس بعدها مجال لأحس . اما اليوم وقد وهن العظم واشتعل الرأس شيباً فقد لا ارى فيها ما كنت أرى من قبل ولا اهتز لها كما كنت اهتزّ في عنفوان الشباب . وربما كنت الآن اشدّ طرباً واعجاباً بقول ابي الطيب :

آلة العيش صحة وشباب فاذا ولّيا عن المرء ولّى

ثم متى آذنت شمس العمر بالمغيب فربما بتّ اكثر استحساناً لقوله :

واذا الشيخ قال اف فما مـــلّ حياة وانما الضعف ملاّ

وقد تعروني هزة في الرمس فانتفض لقوله :

لا بدّ للانسان من ضجعة لا تقلب الفضجع عن جنبهِ

ينسى بها ما كان من عجبهِ وما اذاق الموت من كربهِ

ولكن يقال اجمالاً ما قال شاعر قديم :

وان احسن بيت انت قائلهُ بيت يقال اذا انشدتهُ صدقا

يقابل ذلك حكمة قديمة وهي قولهم « اعذب الشعر اكذبهُ »

(تقيب)